سورة الطور

هى مكية وعدة آياتها تسع وأربعون ، نزلت بعد السجدة .

عن أم سلمة « أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى إلى جنب البيت بالطور وكتاب مسطور » أخرجه البخارى وغيره .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) إن فى ابتداء كل منهما وصف حال المتقين .

(٢) إن فى نهاية كل منهما وعيدا للكافرين .

(٣) إن كلا منهما بدئت بقسم بآية من آياته تعالى الكونية التى تتعلق بالمعاش والمعاد ، فى الأولى أقسم بالرياح الذاريات التى تنفع الإنسان فى معاشه ، وهنا أقسم بالطور الذى أنزل فيه التوراة النافعة للناس فى معادهم .

(٤) فى كل منهما أمر النبى بالتذكير والإعراض عما يقول الجاحدون من قول مختلف .

(٥) تضمنت كل منهما الحجاج على التوحيد والبعث ، إلى نحو ذلك من المعانى المتشابهة بين السورتين .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ

يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

شرح المفردات

الطور بالسريانية : الجبل، والمراد به طور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام ، والمراد بالكتاب هنا : ما كتب من الكتب السماوية كالقرآن والتوراة والإنجيل ، والمسطور : أى المكتوب على طريق منظم ، فالسطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والرّق : (بالفتح والكسر) جلد رقيق يكتب فيه ، والمنشور: المفتوح الذى لا ختم عليه ، والبيت المعمور: هو الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين، والسقف المرفوع : هو السماء ، والمسجور : أى الموقد المحمى،من سجر النار أى أوقدها وعنى به باطن الأرض وهو الذى دل عليه الكشف الحديث ولم تعرفه الأمم قديما، وقد أشارت إليه الأحاديث ، فعن عبد الله بن عمر : «لا يركبنّ رجل البحر إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا ، فإن تحت البحر نارا ، وتحت النار بحرا » .

وقد أثبت علماء طبقات الأرض (الجيلوجيا) أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة؛ أى إن نسبة قشرة الأرض إلى النار التى فى باطنها كنسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذى يؤكل ، فنحن الآن فوق نار عظيمة : أى فوق بحر مملوء نارا ، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة السد عليه ، ومن حين إلى آخر تتصاعد من ذلك البحر نار تظهر فى الزلازل والبراكين كبركان ويزوف الذى هاج بإيطاليا سنة ١٩٠٩ م وابتلع مدينة مسّينا ، والزلزلة التى حدثت باليابان سنة ١٩٢٥ م وخربت مدنا بأكملها .

وتمور : أى تضطرب وترتج وهى فى مكانها ، وأصل المَوْر التردد فى الذهاب والمجىء ، وقد يطلق على السير مطلقا كما قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مَوْرُ السحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَل

وأصل الخوض : السير فى الماء ثم استعمل فى الشروع فى كل شىء وغلب فى الخوض فى الباطل ، كالاحضار فإنه عام فى كل شىء ثم غلب استعماله فى الإحضار للعذاب ، يدعّون : أى يدفعون دفعا عنيفا شديدا بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون إلى النار ويطرحون فيها .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بمخلوقاته العظيمة الدالة على كمال قدرته وبديع صنعته ، وعدّ منها أماكن ثلاثة : الطور والبيت المعمور والبحر المسجور ـ لأنبياء ثلاثة كانوا ينفردون للخلوة بربهم ، والخلاص من الخلق لمناجاة الخالق ، فانتقل موسى إلى الطور وخاطب ربه وقال « أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا » وقال « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » وانتقل محمد إلى البيت المعمور وناجى ربه وقال «سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ، وكلم يونس ربه فى البحر وقال : « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

وقرن الكتاب بالطور لأن موسى كان ينزل عليه الكتاب وهو به ، وقرن السقف المرفوع بالبيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بكل هذا على أن العذاب يوم القيامة نازل بأعدائه الذين يخوضون فى الباطل ويتخذون الدين هزوا ولعبا ، فيدفعون إلى النار دفعا عنيفا ويقال لهم : هذه هى النار التى كنتم بها تكذبون ، ادخلوها وقاسوا شدائدها ، وسواء عليكم أجزعتم أم صبرتم مالكم منها مهرب ولا خلاص .

الإيضاح

(والطور . وكتاب مسطور . فى رقّ منشور) أقسم سبحانه بهذا الجبل العظيم الشأن الذى كلم فوقه موسى وأنزل عليه التوراة التى كتبت بنظام بديع مرتب الحروف فى رق منشور ، يسهل على كل أحد أن يطلع على ما فيها من حكم وأحكام ، وآداب وأخلاق .

(والبيت المعمور) أى والكعبة التى يعمرها عشرات الآلاف الذين يُهْرَعون إليها كل عام من أرجاء المعمورة ، وينسلون إليها من كل حدَب ، كما يعمرها المجاورون لها تبركا بالعبادة فيها ، وطلبا لقبولها عند ربهم .

(والسقف المرفوع) أى والعالم العلوى وما حوى من شموس وأقمار ، وكواكب ثابتة وسيارات ، وما فيه من عرشه وكرسيه وملائكته الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وما فيه من عوالم لايحصى عددها إلا هو ، ومن جنود لايعلم حقيقتها إلا من ذرأها كما قال « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ » .

(والبحر المسجور) أى والبحر المحبوس من أن يفيض فيغرق جميع ماعلى الأرض ، ولا يبقى ولا يذر من حيوان ونبات ،فيفسد نظام العالم وتعدم الحكمة التى لأجلها خلق .

وقد يكون المعنى — والبحر الموقد فى باطن الأرض بمنزلة التنور المحمى وقد بينا هذا فيما سبق .

ثم ذكر ما أقسم عليه فقال :

(إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع) أى إن عذاب يوم القيامة لمحيط بالكافرين المكذبين بالرسل ، لايدفعه عنهم دافع ، ولا يجدون من دونه مهربا ، جزاء ما دنّسوا به أنفسهم من الشرك والآثام ، ودسّوا به أرواحهم من التكذيب بالرسل واليوم الآخر .

(يوم تمور السماء مورا) أى ليس للعذاب دافع فى ذلك اليوم الذى ترتج فيه السماء وهى فى أماكنها وتتحققون أنه لا مانع من عذاب الله ولا مهرب منه .

(وتسير الجبال سيرا) أى وتزول الجبال من أماكنها وتسير عن مواضعها كسير السحاب ، وتطير فى الهواء ثم تقع على الأرض مفتتة كالرمل ثم تصير كالعهن (الصوف المندوف) ثم تطيرها الرياح فتكون هباء منثورا كما دل على ذلك ما جاء فى سورة النمل .

والحكمة فى مَوْر السماء وسير الجبال ـ الإعلام والإنذار بأن لارجوع ولاعودة إلى الدنيا لخرابها وعمارة الآخرة .

ثم بين من سيقع به العذاب حينئذ فقال :

(فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم فى خوض يلعبون) أى فإذا حدث ما ذكر من مور السماء وسير الجبال فهلاكٌ يومئذ للمكذبين الذين يخوضون فى الباطل و يندفعون لاهين ، لايذكرون حسابا ، ولا يخافون عقابا .

(يوم يدعُّون إلى نار جهنم دعًّا) أى يوم يدفعون ويساقون إلى نار جهنم دفعا عنيفا .

فإذا دَنَوْا منها قال لهم خزنتها تقريعا وتوبيخا :

(هذه النار التى كنتم بها تكذبون) أى هذه النار التى تشاهدونها هى التى كنتم بها تكذبون فى الدنيا ، وتكذيبهم بها تكذيب للرسول الذى جاء يخبرها ، وللوحى الناطق بها .

ثم تهكم بهم وأنّبهم فقال :

(أفسحرٌ هذا أم أنتم لاتبصرون ؟) قد كان المشركون فى الدنيا ينسبون إلى محمد صلى الله عليه وسلم أنه يسحر العقول و يغطى على الأبصار ، فأنّبهم على ما قالوا مستهزئا بهم وقال لهم : هل ما ترونه بأعينكم مما كنتم تنبّئون به فى الدنيا من

العذاب ـ حق ، أو سحر تم أيضا كما كان يفعل بكم محمد فى الدنيا ، أو قد غُطّيت أبصاركم فلا ترى شيئا ؟ بلى إنه لحق فلم تُسْحَر أعينكم ولم تُغَطّ أبصاركم .

والخلاصة — هل فى المرئى شك أو فى أبصاركم علل ؟ لا واحد منهما بموجود ، فالذى ترونه حق .

(اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم) أى إذا لم يمكنكم إنكارها ، وتحقق أنها ليست بسحر ، ولا خلل فى أبصاركم فاصلوها ، وفى قوله : فاصبروا أولا تصبروا بيان لعدم الخلاص ، وانتفاء لعدم المناص ؛ فإن من لا يصبر على شئ يحاول دفعه عنه ، إما بإبعاده عنه ، وإما بمحقه وإزالته ؛ ولا شىء من ذلك بحاصل يوم القيامة ـ إلا أن عذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا ، فإن المعذب فيها إن صبر انتفع بصبره إما بالجزاء فى الآخرة وإما بالحمد فى الدنيا فيقال ما أشجعه وما أقوى قلبه ، وإن جزع ذم وقيل فيه يجزع كالصبيان والنسوان ، وأما فى الآخرة فلا مدح ولا ثواب على الصبر .

ثم علل استواء الصبر وعدمه بقوله :

(إنما تجزون ما كنتم تعملون) أى إنما تستوفون جزاء أعمالكم فى الدنيا ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر «وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» بل يجازى كل أحد بعمله ، وإذا كان الجزاء واقعا حتما كان الصبر وعدمه سواء .

والخلاصة — إن الجزاء محتم الوقوع لسبق الوعيد به فى الدنيا على ألسنة الرسل ، ولقضاء الله به بمقتضى عدله ، فالصبر وعدمه سيان حينئذ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

شرح المفردات

فاكهين : أى طيبة نفوسهم مسرورة بما هى فيه ، وقاهم : أى حفظهم ، والطعام الهنىء : مالايلحق المرء فيه مشقةٌ ولا يعقبه تُخمَة ولا سقم ، وزوّجناهم : أى قرناهم ، والحور : واحدتهن حوراء ، والحور : اسوداد المُقلة ، والعين : واحدتهن عيناء : أى واسعة العينين .

المعنى الجملى

بعد أن أبان ما يصيب الكافرين من العذاب الأليم الذى لا دافع له ولا مهرب منه ــ ذكر مايتمتع به المؤمنون فى ذلك اليوم من صنوف اللذات فى المساكن والمآكل والمشارب والفُرُش والأزواج ، على حسب سنن القرآن من ذكر الثواب بعد العقاب ليتم أمر الترغيب بعد الترهيب حتى يكون المرء بين عاملين عاملى لرهبة من بطش ربه والرغبة فى رحمته ، وكلاهما لاغنى للمرء عنه ، ليكمل صلاحه ، ويرعوى عن غيه ، ولا يقنط من رحمة ربه .

الإيضاح

(إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم) أى إن الذين خافوا ربهم وأخلصوا له العبادة فى السر والعلن وأدّوا فرائضه ، وتحلوا بآداب دينه ، وانتهوا عن معاصيه ، ولم يدنسوا أنفسهم بالآثام ، ولم يدسّوا أرواحهم بالذنوب ، يجازيهم ربهم جزاء وفاقا بجنات يتنعمون فيها ويجدون ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال فى الدنيا ، وما حرموا منه أنفسهم من لذاتها ، وما صبروا عليه من مكارهها ، ابتغاء رضوانه ، وهم فيها قريرو الأعين طيبو النفوس ، لايشغلهم شاغل ، ولا يجدون همًّا ولا نصبا ، ولا يكدر صفو عيشهم مكدر .

وقوله فى جنات ونعيم لبيان أن حالهم كحال من يتمتع بالبستان، وكالناظور الذى يحرسه، وقوله: فاكهين؛ إشارة إلى أن قلوبهم لا يشغلها همّ ولا نصب ، بل هم فى لذة وسرور، وفرح وحبور .

ثم ذكر أنهم تمتعوا بنعمة أخرى قبل هذه فقال :

(ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) أى وقد نجاهم ربهم من عذاب النار ، فلم يمسسهم لظاها ، ولم يحسوا بأذاها ، فهم قد لابسوا النعم ، وجانبوا النقم ، وذلك هو الفوز العظيم ، والنعيم المقيم .

ثم ذكر أنه يقال لهم حينئذ :

(كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) أى كلوا مما رزقكم ربكم من الطيبات واشربوا مما لذّ وطاب ، هنيئا أى لا تخافون أذى ولا غائلة كما تشاهدون مثل ذلك فى طعام الدنيا وشرابها ، كفاء ما قدمتم من صالح الأعمال ، وآثرتم من تعب الدنيا لراحة الآخرة . قيل للربيع بن خيثم وقد صلى طوال الليل : أتعبت نفسك ، فقال : راحتها أطلب .

ونحو الآية قوله تعالى « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

وفى قوله (هنيئا) إشارة إلى خلوّ المآكل والمشارب مما ينغصهما ، فإن الآكل قد يخاف المرض فلا يهنأ له الطعام ، أو يخاف النفاد فيحرص عليه ، أو يتعب فى تحصيله وتهيئته بالطبخ والإنضاج ، ولا يكون شىء من هذا فى الآخرة .

وفى قوله (بما كنتم تعملون) إيماء إلى أن هذا إنجاز لما وعدهم ربهم به فى الدنيا فلا منّ عليهم فيه ، بل كان المن عليهم فى الدنيا ، بهدايتهم للإيمان ، وتوفيقهم لصالح الأعمال كما قال « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ » .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الفرش فقال :

(متكئين على سرر مصفوفة) أى يجلسون على سرر مصفوف بعضها بجوار

بعض ، جلسة المتكئ الذى لا كلفة عليه ، ولا تكلف لديه ، فإن من يكون عنده من يتكلف له يجلس ولا يتكئ ، ومن يكون فى مهم لا يتفرغ للاتكاء ، فحاله حال اطمئنان ورفع كلفة وخلو بال .

ونحو الآية قوله « عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الأزواج فقال :

(وزوجناهم بحور عين) أى وجعلنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حسانا واسعات العيون .

وهذا وصف يتمدح به العربى إذا ذكر جمال المرأة .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨).

شرح المفردات

ألتناهم : أى أنقصناهم ، رهين : أى مرهون بعمله عند الله ، والعمل الصالح يفكه ، والعمل الطالح يوبقه ، وأمددناهم : أى زدناهم ، مما يشتهون : أى من صنوف النعماء ، وضروب الآلاء ، يتنازعون : أى يتجاذبون تجاذب ملاعبة وسرور ،

والكأس : الإناء بما فيه من الشراب قاله الراغب ، وقد يسمى كل منهما على انفراد كأسا ، لا لغو فيها : أى فى شرابها ، فلا يتكلمون فى أثناء الشراب بلغو الحديث وسقط الكلام ، ولا تأثيم : أى ولا يفحشون فى القول كما هو ديدن الندامى فى الدنيا، فإنهم كثيرو اللغو فعالون للآثام ، غلمان : أى مماليك مختصون بهم ، مكنون : أى مصون فى أصدافه لم تنله الأيدى فهو يكون أبيض صافى اللون ، والسموم النار والبر : الواسع الإحسان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما يتمتع به أهل الجنة من المطاعم والمشارب والأزواج كرمًا منه وفضلا ـ أردف ذلك بذكر ما زاده لهم من الفضل والإكرام ، وهو أن يلحق بهم ذريتهم المؤمنة فى المنازل والدرجات ، وإن لم تبلغ بهم أعمالهم ذلك ، لتقرَّبهم أعينهم إذا رأوهم فى منازلهم على أحسن الأحوال ، فيرفع الناقص فى عمله إلى الكامل فيه ، ولا ينقص من عمله هو ولا منزلته .

قال ابن عباس : إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه فى المنزلة ، لتقرَّبهم عينه ، وقرأ الآية ، ثم وصف حالهم إذ ذاك فى الطعام والشراب والفاكهة ، فأبان أنه ما من فاكهة أو طعام يطلبونه إلا وجدوه ؛ ثم أتبع هذا ببيان عظيم حبورهم وسرورهم ، فإنهم يتجاذبون الكؤوس ، ويتندرون بأطيب الأحاديث التى لا لغو فيها ولا يأثم بها قائلها لو كان فى الدنيا ، وتخدمهم مماليك غاية فى الحسن والجمال ، ويتحدثون بما كان لهم من شؤون وأحوال فى الدنيا كما هو شأن ناعمى البال قريرى الأعين .

ثم ذكر أن من أحاديثهم أنهم كانوا فى دنياهم يخشون ربهم ويخافونه ، ومن ثمّ وقاهم عذاب النار .

الإيضاح

(والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) أى إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذريتهم فى الإيمان يلحقهم ربهم بآبائهم فى المنزلة فضلا منه وكرما وإن لم يبلغوا بأعمالهم منزلتهم ، لتقرّ بهم أعينهم ، ويكمل بهم فرحهم وحبورهم ، لوجودهم بينهم .

روى ابن مردويه والطبرانى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال له إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول : رب قد عملتُ لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » .

(وما ألتناهم من عملهم من شىء) أى وما أنقصنا مثوبات الآباء وحططنا درجاتهم ، بل رفعنا منزلة الأبناء تفضلا منا وإحسانا .

وبعد أن أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل لهم ، أخبر عن مقام العدل وهو ألا يؤاخذ أحد بذنب أحد فقال :

(كل امرئ بما كسب رهين) أى كل امرئ مرتهن بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أبا أو ابنا ، وقد جعل العمل كأنه دَيْن والمرء كأنه رهن به ، والرهن لا ينفك مالم يؤدّ الدين ، فإن كان العمل صالحا فقد أدى الدين ، لأن العمل الصالح يقبله الله ويصعد إليه ، وإن كان غير صالح فلا أداء ولا خلاص ، إذ لا يصعد إليه غير الطيب .

ونحو الآية قوله « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » أى إن كل نفس رهن بعملها عند الله لا يفك رهنها إلا أصحاب اليمين ، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطاعوه من عملهم وكسبهم .

وبعد أن ذكر وجوه النعيم فيما سلف ذكر أنه يزيدهم على ذلك حينا فحينا مما يشتهون من فنون النعماء فقال :

(وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أى وزدناهم على ما سلف فواكه ولحوما من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى ، وإن لم يقترحوا ولم يطلبوا .

وذكر الفاكهة واللحم دون أنواع الطعام الأخرى ، لأنهما طعام المترفين فى الدنيا .

وبعد أن ذكر طعامهم أردفه بذكر شرابهم وسرورهم لدى احتسائهم له فقال :

(يتنازعون فيها كأسا لالغو فيها ولا تأثيم) أى يتجاذبون الكؤوس فى الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل الندامى فيما بينهم لشدة سرورهم كما قال الأخطل :

نازعته طيّب الرّاح الشّمُول وقد صاح الدجاجُ وحانتْ وقعةُ الساري

وليس فى الشراب فى الآخرة ما فيه فى الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ، ومن الفحش فى القول ، كما يتكلم به الشّرّبُ فيها ، وقد أخبر سبحانه فى موضع آخر عن حسن منظرها ، وطيب مطعمها فقال « بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » وقال : « لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ » .

ثم ذكر ما لهم من خدم وحشم فى الجنة فقال :

(ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) أى يطوف عليهم بالكؤوس مماليك لهم ، يتصرفون فيهم بالأمر والنهى والاستخدام كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون فى الأصداف فى الحسن والبهاء .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : « بلغنى أنه قيل يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : والذى نفسى بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

وروى « إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجىء ألف ببابه لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ » .

ثم بين أنهم فى الجنة يتذاكر بعضهم مع بعض فى أحوال الدنيا فقال :

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أى أقبلوا يسأل بعضهم بعضا فى الجنة عن حاله وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة ، ثم يحمدون الله الذى أذهب عنهم الحزن والخوف وألهم وما كانوا فيه من الكدر والنكد لطلب المعاش وتحصيل الأرزاق ، وما وصلوا إليه ، تلذذا بالنعمة واعترافا بها .

أخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا فيتحدثان ، فيتكئ ذا ويتكئ ذا فيتحدثان بما كانوا فى الدنيا فيقول أحدهما لصاحبه يا فلان أتدرى أىّ يوم غفر الله لنا ؟ اليوم الذى كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا » .

ثم فصل ما يجيب به بعضهم بعضا فقال :

(قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين. فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم) أى قالوا إنا كنا فى دار الدنيا ونحن بين أهلها خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ، فتفضل علينا وأجارنا مما نخاف .

والمقصود إثبات خوفهم فى سائر الأوقات والأحوال بطريق الأولى ، فإن وجودهم بين أهليهم مظنّة الأمن ، فإذا خافوا فى تلك الحال فلأن يخافوا فى غيرها بالأولى .

روى أن عائشة قالت : « لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها» .

ثم تموا العلة فى استحقاقهم للكرامة فى تلك الدار بقولهم :

(إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) أى إنا كنا نعبده ونسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة والرحمة ، فاستجاب دعاءنا وأعطانا سؤلنا ، لأنه هو المحسن الواسع الرحمة والفضل .

وكل من المؤمن والكافر لاينسى ما كان له فى الدنيا ، وتزداد لذة المؤمن إذا رأى نفسه قد انتقلت من سجن الدنيا إلى نعيم الجنة ، ومن الضيق إلى السعة ؛ وتزداد آلام الكافر إذا رأى نفسه انتقل من الترف إلى التلف ، ومن النعيم إلى الجحيم .

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) .

شرح المفردات

فذكر : أى فاثبت على ماأنت عليه من التذكير ، والكاهن : من يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن ، والعرّاف : من يخبر بالأخبار المستقبلة كذلك قاله الراغب ، ونتربص : أى ننتظر ، والمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه وصروفه قال أبو ذؤيب :

أمِنَ المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمُعْتِب من يجزع

وقال آخر :

تربَّصْ بها ريب المنون لعلها تُطَلَّقُ يوما أو يموتُ حليلُها

الأحلام : العقول ، والطغيان : تجاوز الحد فى المكابرة والعناد ، تقوّله : أى اختلقه من تلقاء نفسه ، إذ التقول لا يستعمل غالبا إلا فى الكذب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن العذاب واقع بالكافرين لامحالة ، وأن الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون بأعمالهم ، وأن الرسول على الحق المبين الذى من كذبه باء بغضب من الله ، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه — أمر رسوله هنا بالثبات على التذكر والموعظة ، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون ، فإنه هو الغالب حجة وسيفا فى هذه الدار ، ومنزلة ورفعة فى دار القرار ؛ ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه إلى فساد آرائهم ، وإلى أنهم ما أعرضوا عن الحق إلا اتباعا للهوى ، لا اتباعا للدليل والبرهان ، وفى ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم كما لايخفى ، إذ ما أبعد حال من كان أرجحهم عقلا وأبينهم قولا منذ ترعرع إلى أن بلغ الأشد من الجنون والكهانة ، إلى ما فى هذا من التناقض والاضطراب ، فإن الكهان كانوا من الكملة وكان قولهم مقنعا ، فأين هذا من الجنون ، ثم ترقوا فى نسبته إلى الكذب فقالوا إنه شاعر وأعذب الشعر أكذبه ، ثم قالوا فلنصبر عليه ولنتربص به صروف الدهر وأحداثه ، فسيكون حاله حال زهير والنابغة وأضرابهم ممن انقرضوا وصاروا كأمس الدابر ، ثم أمره بتهديدهم بمثل صنيعهم بقوله : « قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » ثم زاد فى تسفيه أحلامهم بأن مصدر هذا التكذيب إما كتاب أنزل عليهم بذلك وإما أن عقولهم تأمرهم بما يقولون ، لا بل الحق أنهم قوم طاغون يفترون ويقولون ما لادليل عليه لامن كتاب ولا مقتضى له من عقل ؛ ثم زادوا فى الإنكار ونسبوه إلى التقول والافتراء ، فإن صح مايقولون فليأتوا بمثل أقصر سورة من مثل هذا المفترى إن كانوا صادقين ، لا بل هم قوم جاحدون لايؤمنون فليقولوا ماتسوّله لهم أنفسهم فإن الله قد أعمى بصائرهم ، فهم لا أحلام لهم تميز الحق من الباطل ، والغث من السمين فامض لشأنك ، ولا تأبه لمقالهم فالله معك ، ولن يترك شيئا من أعمالك .

الإيضاح

(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) أى فذكر أيها الرسول من أرسلت إليهم من قومك وغيرهم ، وعظهم بالآيات والذكر الحكيم ، ولا تكترث بما يقولون مما لاخير فيه من الأباطيل ، وقد انتفت عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك ، وهذا كما يقول القائل : ما أنا بمعسر بحمد الله وغناه ، والمراد بذلك الرد على القائلين بذلك وإبطاله ، فإن ما أوتيه من رجاحة العقل وعلو الهمة وكرم الفعال وصدق النبوة لكاف جد الكفاية فى دحض هذا وأشباهه . وممن قال إنه كاهن شَيْبة بن ربيعة ، وممن قال إنه مجنون عُقبة بن أبى مُعَيْط .

ثم ذكر أنهم ترقوا فى الإنكار عليه فقال :

(أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أى بل هم يقولون : هو شاعر نتربص به أحداث الدهر ونكباته من موت أو حادثة متلفة .

روى أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة وذهبت مذاهب شتى فى صدّ دعوته صلى الله عليه وسلم ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم ، وماذا يفعلون فى الخلاص منه ، فقال قائل من بنى عبد الدار : تربصوا به ريب المنون فإنه شاعر وسيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، ثم افترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية .

وخلاصة هذا — إنا نبتعد من إيذائه ، ونتقى لسانه مخافة أن يغلبنا بقوة شعره وإنما سبيلنا معه أن نصبر عليه ونتربص موته كما مات الشعراء من قبله .

فأمره الله أن يهددهم ويتهكم بهم بقوله :

(قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) أى انتظروا وتمهلوا فىّ ريب المنون ، فإنى متربص معكم منتظر قضاء الله فىّ وفيكم ، وستعلمون لمن يكون حسن العاقبة والظفر فى الدنيا والآخرة .

(أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض فى القول ،

فالشاعر غير الكاهن وغير المجنون ، وفرق عظيم بين من زال عقله ، ومن يقول الشعر الحكيم الرصين ، ومن يجعل قوله حجة فى معرفة أخبار الغيب ، و يعتقد أن الجن توحى إليه بما يقول :

وقصارى هذا : إنهم لا أحلام لهم ولا عقول .

ثم ذكر السبب الحق فى كل مايعملون فقال :

(أم هم قوم طاغون) أى بل الحق : إن الذى حملهم على أن يقولوا ما قالوا ، هو طغيانهم وعنادهم وضلالهم عن الحق .

(أم يقولون تقوّله) أى أيقولون كاهن أم يقولون شاعر أم يقولون إنه افترى القرآن واختلقه من تلقاء نفسه ؟.

(بل لايؤمنون) أى إن كفرهم هو الذى حملهم على هذه المطاعن وزين لهم أن يقولوا ماقالوا .

ثم رد عليهم جميع مازعموا وتحداهم فى دحض ما قالوا فقال :

(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أى إن كان شاعرا فلديكم الشعراء الفصحاء ، أو كاهنا فلديكم الكهان الأذكياء ، و إن كان قد تقوله فلديكم الخطباء الذين يحبّرون الخطب و يجيدون القول فى كل فنون الكلام ، فهلّم فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، فإن أسباب القول متوافرة لديهم كما هى متوافرة لديه ، بل فيهم من طالت مزاولته للخطب والأشعار وكثرة الممارسة لأساليب النظم والنثر وحفظ أيام العرب ووقائعها أكثر من محمد صلى الله عليه وسلم .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨)

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

شرح المفردات

من غير شىء: أى من غير خالق ، خزائن ربك : أى خزائن رزقه، المسيطرون: أى القاهرون المسلطون عليها ، من قولهم :سيطر على كذا : إذا راقبه وأقام عليه ، سلّم : أى مرتقى إلى السماء ، بسلطان مبين:أى بحجة واضحة تصدق استماعه ، مغرم : أى التزام غرامة تطلبها منهم ، مثقلون : أى محملون ثقلا ، الغيب : أى علم الغيب ، كيدا : أى شرا ، المكيدون : أى الذين يحيق بهم الشر ويعود إليهم وباله .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وردّ عليهم مازعموه من أنه كاهن أو شاعر أو مجنون ، وأمره أن يمضى لطِيَّته ويذكّر الناس ويبشرهم وينذرهم ولا يأبه لمقالتهم ، فالله ناصره عليهم - انتقل إلى الرد عليهم فى إنكارهم للخالق كما هو شأن الدهريين أو لادعائهم لله شريكا كما هو شأن كثير من العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وقالوا : مانعبد الأوثان والأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

وبعد أن أقام عليهم الحجة فى كل ذلك ، وسد عليهم المسالك ، طلب إليه أن يتوكل عليه ، وأن يعلم أن كيدهم لايضيره شيئا ، فالله ناصره عليهم ، وسيظهر دينه، ويتمّ له الغلبة والفلج عليهم .

الإيضاح

(أم خلقوا من غير شيء) أي كيف ينكرون الخالق الموجد؟، فهل هم وُجدوا من العدم؟ وهل هم خلقوا هذا الخلق البديع الصنع من غير خالق ولا موجد؟ والعقل يشهد بأن كل مايوجد من العدم لابد له من موجد.

(أم هم الخالقون) أي بل أهم أوجدوا أنفسهم؟ والضرورة والعقل يكذبان ذلك، إذ يلزم من هذا أن الشيء يكون مقدما فى الوجود على نفسه، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدَّمون على أنفسهم فى الوجود باعتبار أنهم مخلوقون، وهذا بيِّن البطلان.

(أم خلقوا السموات والأرض) أي لو فرض أنهم خلقوا أنفسهم، فهل هم يجرءون ويقولون إنهم خلقوا هذه الأجرام العظيمة التى تتوقف عليها حياتهم، وفيها أسباب معاشهم وهى السموات والأرض؟ — أظن أنهم لايدّعون ذلك.

(بل لايوقنون) أي ليس واحد مما تقدم يمكن أن يدّعوه، بل حقيقة أمرهم أنهم لايوقنون بما يقولون إذا سئلوا: من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ فقالوا الله، إذ لو أيقنوا بذلك ما أعرضوا عن عبادته.

(أم عندهم خزائن ربك) أي بل أهم يتصرفون فى الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن؟ فيعطوا النبوة لمن يشاءون، ويصطفوا لها من يختارون.

(أم هم المصيطرون) أي أم هم الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر العالم ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم، والمراد أنه ليس الأمر كذلك، بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

روى البخاري عن الزهري عن محمد بن جُبير بن مُطْعِم عن أبيه قال: «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ» كاد قلبي يطير، وكان جبير بن مطعم

قد قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركا ، فكان سماعه هذه الآية من جملة ماحمله على الدخول فى الإسلام بعد ذلك .

(أم لهم سلّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين) أى أم لهم مرتقى إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب ، فهم لذلك مستمسكون بما هم عليه ، فإن كانوا يدّعون ذلك فليأتوا بحجة تبين أنهم على الحق ، كما أتى محمد صلى الله عليه وسلم بالبرهان الدال على صدق قوله فيما جاءهم به من عند ربه .

و بعد أن رد على الذين أنكروا الألوهية بثانا ردّ على من قالوا: الملائكة بنات الله ، وسفه أحلامهم ؛ إذ اختاروا له البنات ولأنفسهم البنين فقال :

(أم له البنات ولكم البنون) أى بل ألربكم البنات ولكم البنون ؟ « تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى » .

وفى هذا إيماء إلى أن من كان هذا رأيه لايعد من العقلاء فضلا عن الترقى إلى عالم الملكوت ، وسماع كلام رب العزة والجبروت .

(أم تسألهم أجرًا فهم من مغرم مثقلون) أى بل أتسأل هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم على ماتدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته — أجرًا تأخذه من أموالهم فهم من ثقل ماحملتهم من المغرم لايقدرون على إجابتك إلى ماتدعوهم إليه ؟

(أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟) أى أم عندهم علم فهم يكتبون ذلك للناس ، فينبئونهم بما شاءوا ويخبرونهم بما أرادوا — ليس الأمر كذلك ، إذ لايعلم غيب السموات والأرض إلا الله .

قال قتادة : وهذا جواب لقولهم : نتربص به ريب المنون ، فيقول الله : أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم يموت قبلهم .

(أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) أى بل يريد هؤلاء المشركون

بقولهم هذا فى الرسول وفى الدين غرورَ الناس وكيد الرسول، فإن كان هذا مايريدون فكيدهم راجع إليهم ووباله على أنفسهم ، فثق بالله وامض لما أمرك به .

قال فى فتح البيان : والظاهر أنه من الإخبار بالغيب ، فإن السورة مكية، وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة ، ثم أهلكهم الله تعالى ببدر عند انتهاء سنين عدتها عدة ماهنا من كلمة (أم) وهى خمس عشرة ، فإن بدرا كانت فى الثانية من الهجرة وهى الخامسة عشرة من النبوة ، وأذلهم فى غير موطن ، ومكر سبحانه بهم ومكروا ، ومكر الله والله خير الماكرين اه .

(أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون) أى ألهم إله غير الله يعينهم ويحرسهم من عذاب الله ؟ تنزه ربنا عن الشريك وعما يعبدونه سواه .

وفى هذا إنكار شديد على المشركين فى عبادتهم للأصنام والأنداد مع الله تعالى.

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩).

شرح المفردات

كسفا : أى قطعة ، مركوم : أى متراكم ملقى بعضه على بعض ، يصعقون : أى يُقتلون ، دون ذلك : أى قبله ، وهو ما أصابهم من القحط سبع سنين ،

بأعيننا : أى فى حفظنا وحراستنا ، وإدبار النجوم : أى وقت إدبارها من آخر الليل أى غيبتها بضوء الصباح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مزاعمهم فى النبوة وبيّن فسادها بما لم يبق بعده وجه للعناد والمكابرة ، ثم أعقبه بالرد عليهم فى جحودهم للألوهية إما بإنكارها بتاتاً ، وإما بادّعاء الشريك لله ، أو باتخاذه الولد ، سبحانه وتعالى عما يصفون — أردف هذا ببيان أن هؤلاء قوم بلغوا حدا فى العناد أصبحوا به يكابرون فى المحسات فضلا عن المعقولات ، فدعهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى لامرد له ، يوم لاتنفعهم حبائلهم وشراكهم التى كانوا ينصبون مثلها فى الدنيا ، ولا يجدون لهم إذ ذاك وليًّا ولا نصيرا ، وأن الله سيصليهم بعذاب من عنده فى الدنيا قبل ذلك اليوم ، وأنه ناصرك عليهم وكالئك بعين رعايته ، واذكر ربك حين تقوم من منامك ومن مجلسك ، وحين تغيب النجوم ويصبح الصباح وتغرّد الأطيار مسبحة منزهة خالق السموات والأرض ، قائلة : سُبُّوحٌ قُدُّوس ، ربُّ الملائكة والرُّوح .

الإيضاح

(وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم) أى إن هؤلاء قوم دينُهم العناد والمكابرة ، فلو رأوا بعض ماسألوا من الآيات ، فعاينوا كسفا من السماء ساقطا — لكذبوا وقالوا : سحاب بعضه فوق بعض ، لأن الله قد ختم على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فأصبحوا ينكرون ماتبصره الأعين ، وتسمعه الآذان .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم وشأنهم فقال :

(فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) أى فدعهم وشأنهم ولا تكترث بهم حتى يأتى اليوم الذى يجازون فيه بسيئات أعمالهم وهو يوم بدر ، قاله البقاعى وهو الظاهر فى الآية .

(يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا ولاهم ينصرون) اى وفى هــذا اليوم لاتنفعهم الحيل التى دبروها لمناصبته صلى الله عليه وسلم العداء ، ولا يجدون لهم نصيرا ولا معينا يدفع عنهم مايحيق بهم من العذاب .

(وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك) أى وإن لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالــكفر والمعاصى عذابا بالقحط والجوع سبع سنين قبل يوم بدر لأنه كان فى السنة الثانية للهجرة والقحط وقع لهم قبلها .

(ولــكن أكثرهم لايعلمون) ما يصيرون إليه من عذاب الله وما أعده لهم فى الدنيا والآخرة ؛ وأنا سنبتليهم بالمصايب ، لعلهم يرجعون وينيبون إلينا .

ونحو الآية قوله : « وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

(واصبر لحــكم ربك فإنك بأعيننا) أى واصبر على أذاهم ولا تبال بهم ، وامض لأمر الله ونهيه وبلِّغ ما أرسلت به ، فإنك بمرأى منا نراك ونرى أعمالك ، ونحوطك ونحفظك فلا يصل إليك منهم أذى .

(وسبح بحمد ربك حين تقوم) أى ونزّه ربك عما لايليق به لإنعامه عليك ، واعبده بالتلاوة والصلاة حين تقوم من مجلسك ، قال عطاء وسعيد وسفيان الثورى وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده أو سبحانك اللهم وبحمدك عند قيامه من كل مجلس يجلسه .

وعن أبى بَرْزَةَ الأسلمى قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بآخر عمره إذا قام

من المجلس يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل يارسول الله : إنك لتقول قولا ما كنتَ تقوله فيما مضى ، قال كفارة لما يكون فى المجلس » أخرجه أبو داود والنسائى والحاكم وابن مردويه وابن أبى شيبه .

وروى « أن جبريل علّم النبى صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

(ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) أى وسبحه فى صلاة الليل ، لأن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء ، وحين إدبار الليل بظهور ضوء الصبح ، وقيل المراد من التسبيح من الليل صلاة المغرب والعشاء ، ومن إدبار النجوم ركعتا الفجر .

وقد روى ذلك عن عمر وعلىّ وأبى هريرة والحسن رضى الله عنهم أجمعين .

ونحو الآية قوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » .

خلاصة ماحوته السورة الكريمة

من العظات والزواجر

(١) القسَم بالعالمَ العلوى والسفلى على أن العذاب آتٍ لامحالة .

(٢) وصف عذاب النار وما يلاقيه المكذبون حينئذ من الذلة والمهانة .

(٣) وصف نعيم أهل الجنة وما يتمتعون به من اللذات فى مساكنهم ومطاعمهم ومشاربهم وأزواجهم وخدمهم وحشمهم .

(٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالثبات على تبليغ الرسالة والإعراض عن سفاهتهم من نحو قولهم: هو شاعر ، هو كاهن ، هو مجنون ، هو مفتر .

(٥) إثبات الألوهية بالبراهين التى لاتقبل جدلاً .

(٦) النعى على المشركين فى قولهم : الملائكة بنات الله .

(٧) بيان أنهم بلغوا فى عنادهم حـــدا ينكرون معه المحسوسات التى لاشك فيها .

(٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتركهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى كانوا يوعدون .

(٩) الإخبار بأن الظالمين فى كل أمة وكل جيل يعذبون فى الدنيا قبل عذابهم فى الآخرة .

(١٠) الإخبار بأن الله حارس نبيّه وكالئه ، فلا يصل إليه أذى من خلقه كما قال سبحانه « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

(١١) أمره صلى الله عليه وسلم بالذكر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار ، وفى كل موطن ومجلس يقوم فيه .